المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

سيمنار المركز العربي

14 آذار/ مارس 2018

حول مفهوم عبور التخصصات

رجا بهلول

REF: 08/18

رجا بهلول

أستاذ الفلسفة بمعهد الدوحة للدراسات العليا.

وقد حصل الدكتور رجا بهلول على شهادة البكالوريوس في الفلسفة واللغة الإنجليزية من الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1973. ثم أكمل دراسته للفلسفة في جامعة إنديانا في الولايات المتحدة الأمريكية حاصلا على شهادة الماجستير في الفلسفة عام 1978 والدكتوراه في الفلسفة عام 1983. تناولت رسالة الدكتوراه مفهوم الهوية والتماثل وقانون لايبنتس المعروف باسم "هوية المتماثلات". وقد قام الدكتور بهلول بتدريس الفلسفة في جامعات عدّة منها: جامعة اليرموك (الأردن) وجامعة إنديانا-بيردو (الولايات المتحدة) وجامعة بيرزيت (فلسطين) وجامعة الإمارات العربية المتحدة (الإمارات) وجامعة قطر (قطر).

تركّزت أبحاثه في البداية حول مفهوم الهوية والتماثل في سياق النقاشات الميتافيزيقية المعاصرة لهذه المفاهيم، وبالإشارة إلى فلسفة كلٍّ من لايبنتس وأرسطو، قبل أن يشرع لاحقًا بدراسة علم الكلام والفلسفة الإسلامية، ولتتوسّع اهتماماته لتشمل الفكر العربي والإسلامي المعاصر، مع اهتمامٍ خاص بانعكاسات الحداثة الغربية في مجالات السياسة والاجتماع، وقضايا المرأة والديموقراطية وحقوق الإنسان. وله العديد من الأبحاث المنشورة، ومن بين مقالاته العلمية الحديثة: "الانفعال والإدراك الوجداني" (2014)؛ "ابن سينا ومشكلة الكليات" (2009)؛ "حكم الله وحكم الشعب: منطق الحاكمية الإلهية في الخطاب الإسلامي الديمقراطي" (2000)؛ "Emotion as Patheception" (2014)؛ "Modernity and Islamic Religious Consciousness" (2012)؛ "Is Constitutionalism Compatible with Islam?" (2009)؛ "Avicenna and the Problem of Universals" (2007). وصدر له حديثًا عن المركز العربي للأبحاث كتاب **خطاب الكرامة وحقوق الإنسان**.

حول مفهوم عبور التخصصات

رجا بهلول

يحظى مصطلح "عبور التخصصات" interdiscriplinarity منذ فترة برواج كبير في الاوساط الاكاديمية الغربية، ولكنه لا يزال غير مألوف عندنا نسبيا. فالبحث في محرك غوغل بالعربية لا يعيد نتائج كثيرة ذات علاقة بالموضوع. أما في الأدبيات الغربية فللمفهوم تاريخ اطول، يعود على الاقل الى عشرينات القرن الماضي (Klein 1996, 8) وسرعان ما تبعه مصطلحات متنافسة وبدائل أو مكملات لا نجد ما يقابلها في اللغة العربية حاليا، مثل multidisciplinarity, pluridisciplinarity, postdisciplinarity, transdisciplinarity. crossdisciplinarity, metadisciplinarity, antidisciplinarity,

ترافق تقدم مفهوم عبور التخصصات الى الواجهة مع ظهور عدد كبير من الابحاث والكتب والمؤتمرات التي تؤيد هذا المفهوم بالاستناد الى عدد كبير من الاعتبارات والحجج. أكتفي بالاشارة الى مقالة بعنوان 10 Cheers for Interdisciplinarity التي تقدم ما لا يقل عن عشرة اسباب تؤيد عبور التخصصات (Nissani 1997, 201-16). ولكن على الرغم من الانتشار الواسع وكثرة المؤيدين لا يزال المفهوم مفتقدا لتعريف واحد متفق عليه. وهذا ما تقره به اكثر الأبحاث التي تحاول التعريف العام بموضوعها قبل الخوض في التفاصيل. هناك بعض الشروحات التي تتسم بدرجة من الهلامية والضبابية لا تكاد تصدق، مثل قول احد الكتاب أن

> ابستيمولوجيا عبور التخصصات ليست صندوقا مغلقا، ذلك ان المعرفة العابرة للتخصصات هي في الحقيقة خطاب بلاغيrhetoric ، يكمن جوهره في الوصول الى حالة من السكوت المزري abject

> wordlessness الذي لا يشكل غلقا للموضوع. بل هي جهد من اجل اعادة نظر في أشكال الانغلاق الذي يجب يبقى قابلا للمسائلة من قبل طوارئ الحاضر. (Lieu 2008, 185. Quoted in Jacobs 2013)

وقد صل الامر باحد الكتاب الى القول ان " مفهوم عبور التخصصات بات شديد الالتباس الى درجة تجعل الالتزام به من قبل الجامعات أمرا لا يكاد يكون له أي معنى" (Wasserstrom, 2006, B5)، في حين يكتفي كاتب آخر بالقول أن المفهوم

> بات ... يحمل معان كثيرة تتراوح ما بين تشجيع الاتصال والتواصل بين الباحثين في حقول مختلفة، وصولا الى مقترحات بعيدة الاثر تتضمن دعوات لهدم البنية التخصصية برمتها (Jacobs 2013, 3)

الهدف الاساس الذي اسعى لتحقيقة في هذه الورقة هو عرض اصعدة (أو مستويات) يجري فيها الحديث عن عبور التخصصات. تفيد الاطروحة التي اتقدم بها ان لعبور التخصصات معنى (او معاني) تتسم بالبراءة، ولا يسعنا إلا القبول بها، كما ان هناك معنى (أو معاني) تتسم بالراديكالية حيث يعاني المفهوم من مصاعب جمة قد تصل به الى درجة الاستحالة.

(1)

يقال مفهوم عبور التخصصات في بعض الاحيان بمعنى "الاتصال او التواصل والتعاون عبر التخصصات".(Jacobs,2013, 1) . نجد شيئا من التفصيل لهذا الكلام العام عند كاتب يعرف العبور بانه "عملية استحضار، أو جمع، وبطريقة محددة، بعض المكونات التخصصية المستقاة من تخصصين مختلفين أو اكثر". (Nissani 1997,122) تشتمل مكونات التخصص بالمعنى الذي يقصده الكاتب على المناهج، والمفاهيم، والقيم، والاهداف، والمهارات والمعطيات. يوضح الكاتب مفهوم العبور بالاشارة إلى ابحاث مندل Mendel الذي استخدم الاحصاء في ابحاثه الوراثية، ويوهانس كبلر Keplerالذي استخدم الهندسة في ابحاثه الفلكية. كما يمكن ذكر الفيزياء المعاصرة التي تعرف احيانا باسم الفيزياء الرياضية (mathematical physics). ويمكن امثلة

اضافية كثيرة. يستخدم جون رولز في نطرية العدالة مفاهيم من نظرية الاختيار العقلاني التي تطورت في علم الاقتصاد. وقام كل من كانط وهيغل بـ "استيعاب" منطق ارسطو وميكانيكا نيوتن وهندسة اقليدس (بصورة كارثية). في الفلسفة السياسية لا نتجاهل فيبر. عالم الاجتماع يستخدم مفاهيم المفاهيم والآليات الاحصائية. ويفيد علم النفس من معطيات البيولوجيا.

ولكن اذا كان عبور التخصصات لا يعنى اكثر من اقتباس أو استخدام مفاهيم أو نطريات او معطيات أو افكار من علم معين في علم آخر، فليس هذا بجديد. ذلك أن الحقول التخصصية دأبت منذ البداية على الاستفادة من النظريات والمفاهيم والمناهج التي تتطور في هذا المجال او ذاك. يقول أحد الكتاب ملخصا الموضوع برمته:

> أنه امر روتيني أن تستعير التخصصات من بعضها البعض [مناهجا أو نظريات أو مفاهيم] في سياق نشاط البحث التخصصي. فالفيزيائي لا يستطيع القيام بنشاطه البحث دون استخدام ادوات الرياضيات. وعالم السياسة يأخذ بالاستنتاجات التي يقدمها علماء الاجتماع والتاريخ والاقتصاد، كما أن الابحاث الادبية تستفيد من مناهج الالسنيات والفلسفة التحليلية. ليس هناك جديد في عملية التصدير/الاستيراد عبر الحدود الفاصلة بين التخصصات. **ولم يكن ليخطر ببال أحد ان يسمي مثل هذا الامر "عبورا للتخصصات"** (التأكيد مضاف) (Benson 1982, 39)

(2)

هناك زاوية اخرى للنظر في مفهوم عبور التخصصات: فهو ما تتطلبة دراسة بعض المشاكل او المفاهيم او الاوضاع المعقدة ذات الجوانب المتعددة التي ليس بوسع تخصص واحد ان يحيط بها. يظهر هذا التصور في قول كل من Klein and Newell ان "عبور التخصصات هو عملية الاجابة على سؤال، او حل مشكلة، او معالجة

قضية على درجة من الاتساع او التعقيد بحيث لا يمكن دراستها من خلال تخصص واحد" (Klein and Newell 1997, 393–394).

يمكن توضيح الفكرة بالاشارة إلى كثير من المجالات التي تتم دراستها من خلال البرامج العابرة. بعض هذه البرامج وليدة اصطدامنا بمشاكل معقدة ومتعددة الجوانب مثل مشكلة التنمية المستدامة، التصحر، التغير المناخي، الفقر. وهناك ايضا دراسات عابرة للتخصصات ساهم في نشأتها حراكات اجتماعية احتجاجية، ناجمة عن مشاكل معقدة ذات جوانب متعددة. ينطبق هذا تحديدا على الدراسات الأفرو- امريكية ودراسات المرأة. فقد ساهمت كل من حركة الحقوق المدنية والحركة النسوية في جعل المناخ مناسبا لنشوء مثل هذه البرامج. يضاف الى ذلك "دراسات المناطق"، مثل دراسات الخليج ودراسات الشرق الاوسط والدراسات ما بعد الكولونيالية والدراسات الروسية أو الامريكية او ما شئت. كثير من هذه الدراسات تأسس وفقا لمصالح، استعمارية أو بدافع مقاومة الاستعمار أو بنوايا السيطرة الاقتصادية أو السياسية او لخدمة اهداف ايديولوجية من نوع او آخر. لم توجد هذه الدراسات لحل مشاكل محددة، ولكن يفترض ان لها مردودات عملية تتعلق باستباق المشاكل أو السيطرة أو رسم السياسات المستقبلية من خلال الدراسة العلمية .

ماذا يعني عبور التخصصات بهذا المعنى؟ لا يبدو العبورهنا مثل حال العبور الذي يجري عندما يستخدم عالم الاجتماع أو التاريخ علم الاحصاء أو التحليل اللغوي في دراساته. يتعلق الامر برسم صورة لموضوع معين من جوانب مختلفة. من خلال العلوم الطبيعية نتوصل الى معرفة الآليات المؤدية الى ارتفاع درجة حرارة الكوكب، ووتيرة ذوبان الجليد في القطبين. ومن خلال العلوم الاقتصادية نستوعب الآليات الاقتصادية (التصنيع، والنمو الاقتصادي) الذي يتطلب استخدام الطاقة بطرق معينة، ومن خلال علوم السياسية

والعلاقات الدولية نستوعب صراع المصالح والصعوبات التي تعترض طريق السيطرة على مجريات تغير المناخ. وقد لا يعدم المختصون بالفلسفة وعلم الاخلاق والدين دورا في المساهمة في الموضوع بالاشارة الى الجوانب الاخلاقية المتعلقة بحقوق الشعوب والاجيال المقبلة.

في مثل هذه الحالات من عبور التخصصات لا يفقد اي من التخصصات استقلاليته ولا يتوقع منه اجراء تغيير في المناهج او النظريات او الحقائق او الاستناجات التي يبنيها وفق منطقه الداخلي. ماذا يبقى للدارس عابر التخصصات الذي يريد ان يدرس ظاهرة التغير المناخي من وجهة نظر عابرة للتخصصات؟ يقول احد الكتاب

> تكمن استراتيجية الدارس عابرالتخصصات (the interdisciplinarian) في استخصار التخصصات المناسبة لدراسة سؤال معين كل منها على حدة، تاركا المجال لكل واحد منها لالقاء الضوء على موضوع الدراسة من خلال المفاهيم والنظريات والمناهج الخاصة به. ثم يعمل الدارس العابر للتخصصات على استخلاص استجابة (يؤمل ان تكون شمولية) بالاستناد الى النتائج والاستبصارات (insights) التي خلصت اليها التخصصات المختلفة. ... والدارس عابر التخصصات لا يكتفي بجمع الاستنتجات والتبصرات وانما يقوم بتقدير مشروعيتها وقيمتها في سياق المشكلة موضوع البحث... (Newell 1983, 2)

لا يقول الكاتب كيف يحصل الباحث عابر التخصصات على مثل هذا الامتياز الإشرافي على المشكلة المعقدة والمتعددة الجوانب، بحيث ينتقي التخصصات المناسبة لدراسة المشكلة، ثم يقوم بتقدير قيمة او مشروعية الاستنتاجات التي تتوصل اليها. أي نوع من التأهيل او التدريب يمكنه من هذا؟ اذا كان مختصا في حقل تخصصي واحد او حتى اثنين فلعنة الجزئية المفترضة سوف تلاحقة مثلما تلاحق كل واحد منا (كما يخشى انصار عبور التخصصات). وأن يكون مختصا بكل شيء فهذا امر مستحيل. واذا كان ما يسمى بـ jack of all trades ("بتاع كله" في اللهجة المصرية) فلن يحظى بكثير من المصداقية.

واقع الامر ان استيعاب الظواهر المعقدة ومتعددة الجوانب لا يستدعي وجود شخص او اشخاص يمتهنون مهنة عبور التخصصات. ولا تحتاج التخصصات الى من يشكل منها فريق كرة قدم بحثية. حالما تبرز مشكلة تستدعي الاهتمام على نطاق واسع تبادر التخصصات في الهجوم عليها مدفوعة بشتى انواع الدوافع وبدون تنسيق مسبق او اشراف كامل. وليس من المستغرب أن تجد بعد مضي بعض الوقت محررا اكاديميا يقوم بجمع ابحاث من تخصصات مختلفة تعالج مشكلة محددة. وفي المجتمعات الحرة على اي حال لا بد ان يتبلور آجلا ام عاجلا اجماع على إدراكات أو سياسات يتم التفاوض بشأنها، ويساهم في صوغها اناس من مختلف الحقول البحثية، دونما حاجة الى مشرف او مرشد أعلى اسمه "الباحث العابر للتخصصات" . يقول احد الكتاب:

> لا يحتاج موضوع الزراعة المستدامة sustainable agriculture الى ابستمولوجيا جديدة ولا نوع جديد من المعرفة ولا يحتاج الى عملية اعادة النظر في النظام البحثي التخصصي كما نعرفه الآن. على الأغلب سوف ينشأ موضوع الزراعة المستدامة نتيجة الجهود المبذولة في برامج بحثية متنوعة في الجامعات وفي مختبرات الابحاث التطبيقية حول العالم بالتظافر مع جهود صناع القرار لنشر ما يتم التوصل اليه من النتائج حول افضل السياسات المتعلقة بالزراعة المستدامة. (Jacobs 2013, 134)

(3)

يمكن الحديث عن عبور التخصصات في سياق الحديث عن المناهج الدراسية (curriculum)، وعلى اكثر من مستوى. هناك المستوى المألوف والمعروف بـ General Education والذي تعرف بعض الجامعات العربية شيئا منه من خلال مصطلحات مثل "متطلبات الكلية" أو "متطلبات الجامعة" -- مقررات متنوعة تعرضها الجامعة امام طالب مرحلة البكالوريس في العادة. وهي تهدف (عن وعي في كثير من الاحيان) الى منح

الطالب فرصة للتعلم في مواضيع مختلفة من خلال مقررات متنوعة من تخصصات مختلفة، عل ذلك يحدث نوعا من النضوج او التكامل الفكري أو يجنب الطالب شر الوقوع في ما يفترض انه الافق المحدود للتخصصات.

ولكن التعلم عملية مستمرة لا تنتهي بالشهادة الجامعية الأولى. لذا يمكن الحديث عن عبور التخصصات في المراحل الجامعية العليا حيث يتم تهيئة وتدريب طلبة قادرين وموهلين للبحث وللانتاج العلمي والنشر في مجالات بحثية مختلفة. وضيق الافق الذي قد نخشى منه ليس مقصورا على الطلبة قليلي الاطلاع ، بل قد يكون مصير علماء وباحثين متخصصين في مجال ضيق لا يكادون يفقهون شيئا آخر غيره. يقول عزمي بشارة واصفا حالات من هذا النوع:

> توصل اقتصاديون الى نتائج خاطئة نتيجة لعدم معرفة الثقافة السائدة في مجتمع ما، وتوصل علماء اجتماع الى نتائج خطيرة باطلاق تعميمات من دون معرفتهم تاريخ المجتمع الذي يدرسونه ومؤرخون اختزلوا التاريخ في الصراعات بين الدول والسياسيين وتعاقبهم على الحكم وهمشوا المجتمعات والعلاقات الاجتماعية والثقافية، وعلماء سياسة وعلاقات دولية لا يقدمون لنا فهما اعمق لما يدوور من زملائهم الصحفيين لانهم اهملوا الاقتصاد والتاريخ والثقافة عند دراستهم السياسة والعلاقات الدولية؛ كما ان ابتعاد ... التخصصات ... عن الحوار مع الفلاسفة افقدها شرفات مطلة على الاسئلة الانسانية الكبرى، وفوت عليها فرصا لصياغة الاسئلة المتعلقة بالبعد الاخلاقي في العلوم الاجتماعية.... (بشارة 2018 3)

يمكن الإشارة الى المناهج الدراسية المستخدمة في كليات التربية والطب والصحة بصفتها من اوضح الامثلة على عبور التخصصات على صعيد المنهاج الدراسي. فالمنهاج في كلية التربية لا يستقيم دون مشاركة علم النفس والاجتماع والفلسفة والإدارة والاحصاء اضافة الى التخصصات المختلفة التي يجري التدرب على تدريسها. وما يتم البحث فيه من خلال علم النفس التربوي ، أو فلسفة التربية لا يمكن تصوره من دون المام بتخصصات مختلفة. والامر اوضح ولا يحتاج الى بيان في منهاج كليات الصحة والطب بشكل عام، حيث يجري تدريب الطلبة

والباحثين في تخصصات مختلفة تشتمل على الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وعلم الاجتماع والاحصاء وحتى الأخلاق وغيرها. عبور التخصصات على صعيد المنهاج التدريسي في هذه المجالات مقنن ومنذ امد بعيد، كما انه قائم بموجب ضرورات بحثية موضوعية اكثر الحاحا من الخوف من ضيق افق نابع عن التخصص المفرط.

أما في المجالات التي يذكرها بشارة مثل التاريخ والاقتصاد والسياسة فقد لا ينال الطلبة فيها اكثر من نصيب متواضع من المعارف المتنوعة، مما قد يتوفر لهم من خلال التعليم العام اوالمتطلبات الجامعية المشتركة. لا يماري احد في القول ان المنهاج التدريسي الذي يقوم بتعريف الباحثين والدراسين بتخصصات مختلفة ويتدارس العلاقات بين التخصصات افضل حالا من المنهاج الذي لا يلتفت الى شيء خارج التخصص. فمما لا شك فيه ان سعة الافق لدى اصحاب التخصص شرط ضروري (وان لم يكن كافيا) لتجنب النظريات السطحية والساذجة التي لا تصمد امام النقد. ولكن العبور بهذا المعنى لا يشكل تهديدا لوجود التخصصات ولا استقلالها. كما انه لا يتطلب من الباحث أن يكون مختصا بكل شيء ، أو أن يكتفي بمعرفة سطحية تطال كل شيء. أنه يهدد فقط الاقتصادي الذي ليس عنده أي وعي بمعنى التاريخ و الثقافة والعوامل الاجتماعية، أو عالم السياسة الذي ليس عنده أي المام بالجوانب المتعددة للعالم حيث تصنع السياسة، أو المؤرخ الذي ليس عنده المام بعلم الاجتماع والاقتصاد وغيره مما قد يكون ذا علاقة بموضوع البحث.

(4)

ليس في ما سبق من المعاني ما يمكن ان يقلق انصار التخصصات. اصل الآن الى المعنى الاكثر راديكالية من كل ما سبق. يقال بداية أن عبور التخصصاتinterdisciplinarity يختلف عن تعدد التخصصات multidisciplinarity. وقد سعى احد الكتاب لتوضيح الفرق بين هذا وذاك مجازيا عن طريق مقارنة تعدد التخصصات بطبق فواكة من انواع مختلفة تجلس الواحدة منها بجوار الاخرى، في حين ان عبور التخصصات

يشبه شراب السموثي smoothie الذي ينتج عن طحن الفواكة المختلفة في جهاز الخلاط (Nissani 1995, 121-8). وأقرب ما وجدته كترجمة لمصطلح الـ smoothie هو "عصير الفخفخينا" وهو (بحسب ويكيبيديا العربية) "عصير غليظ يتمتع بشعبية كبيرة في جمهورية مصر العربية ويتألف من موز وكمثرى واناناس وبوظة ومانجو وتفاح ومكسرات". يفترض ان لهذا العصير مذاقا يختلف عن المذاقات المنفردة لكل مكوناته. بلغة أقل مجازية يقول احد الكتاب:

> نعني بتعدد التخصصات وضع الاستنتاجات والاستبصارات insights المستقاة من تخصصين او اكثر جنبا الى جنب ... دون اي محاولة لادماجها (integration). يغدو البحث العلمي عابرا للتخصصات بالمعنى الحقيقي للمصطلح عندما يتجاوز كونه الصاق تخصص بآخر وانما محاولة لدمج وتركيب synthesis الافكار والمناهج (Repko 2012, 14-16).

كيف يفترض ان يتم هذا؟ حديث شراب smoothie طبعا مجاز لا طائل تحتة ولا يعفينا من واجب الحديث بوضوح. سوف اختار امثلة محددة من مجالات "متعددة الجوانب" يمكن ان تدرس بطريقة عابرة للتخصصات. أختار هذه الامثلة بعينها لأن هناك من تحدث عنها : الاستنساخ والنوع الاجتماعي وظاهرة الضوء. (قد لا تبدو هذه الاخيرة متعددة الجوانب، ولكن من يقرر هذا؟). كثير من الاسئلة تطرح نفسها هنا. من يحدد التخصصات التي ينبغي اختيارها لدراسة هذه المواضيع ذات الجوانب المتعددة؟ هل هو الباحث العابر التخصصات؟ أم ان بوسع أي باحث متخصص أن يقوم بذلك؟ من يحدد دور التخصصات في الدراسة؟ مثلا: هل تدخل البيولوجيا في موضوع النوع الاجتماعي؟ وضمن اية محددات، طالما أن موضوع النوع الاجتماعي وجد أساسا لكي يكون مختلفا عن مفهوم النوع بالمعنى البيولوجي؟ هل يدخل الدين في مجال دراسة الاستنساخ او النوع الاجتماعي؟ أم علم الاخلاق والفلسفة؟ أم الاثنين معا؟ وماذا عن الفن والأدب في دراسة الظاهرة الضوئية (بالاضافة الى الفيزياء بالطبع)؟

يمكننا ذكر مثل قد يجده البعض مسليا: دراسة الضوء من منطلق عبورالتخصصات. قد نظن في البداية ان الضوء من اختصاص الفيزياء، فلنتركها وحدها. نفاجىء بان الفيزيائي مدعو للمشاركة في هذا الموضوع بصحبة الفنان الذي يتعلم كيف يستخدم الضوء لأعراضه الفنية. كما ان المتصوف وكل من آمن بالنورالإلهي مدعو ايضا. فالغزالي كما نعرف لم يهتد الا من خلال نور (ضوء) قذفه الله في قلبه. ماذا نتوقع ان يحصل عندما يلتقي الفيزيائي والفنان والاديب والمتصوف لدراسة الضوء من منظور عابر للتخصصات؟ يقول احد الكتاب في سرده لتجربة عابرة للتخصصات ما يلي:

> اثناء عمله جنبا الى جنب مع الفيلسوف، اكتشف الفيزيائي ان الافتراضات التي يمليها عليه تخصصه قد فرضت عليه مقاربة معينة في فهم الضوء. فهو لم يخطر على باله يوما ان يتفحص مفاهيمه الكبرى عن الكتلة والطاقة والوجود المادي، لأن كل هذه قد بدت له واضحة كل الوضوح. وكان على الفيلسوف ان يبين للفيزيائي ان أجوبة هذا الاخير عن الاسئلة الاساسية لم تكن لتتسم بالحرص بل بالاهمال، اضافة الى كونها اجوبة نفعية وصولية غير مبدئية. وهكذا بدأ الفيزيائي وعالم الجيولوجيا [الذي صدف تواجده في المجموعة لعلة لا ادريها] بمساعدة اساتذه الانسانيات يكتشفون ان اجوبتهم عن اللون والكتلة والطاقة لم تكن اجوبة قوية بما فيه الكفاية. (Quoted in Repko 2012, 277)

ليس من السهل تصور فيزيائي يستمع إلى مثل هذا الكلام الهزلي عن مفاهيم الكتلة واللون والطاقة "غير الواضحة"، أو "الاجوبة غير المبدئية" او غير "القوية". من المتوقع ان يسأل الفيزيائي عالم الانسانيات عن عدد النيوتونات (وحدة قياس القوة) المطلوبة حتى يكون الجواب "قويا" بما فيها الكفاية، وما اذا هناك من طريقه لقياس ذلك. بعد ذلك يفترض أن يمضي في سبيله متندما على الوقت الذي اضاعه مع عالم الانسانيات.

عدا عن ذلك: ما الرؤية التكاملية التي سوف تنجم عن دراسة الاستنساخ بصورة عابرة للتخصصات؟ لا بد ان تكون العلوم البيولوجية حاضرة هنا بالطبع، كما العلوم الاجتماعية، وبالطبع الفلسفة والاخلاق والدين. أليس من الواضح ان لهذه المسألة جوانب تفصل بينها جدران عالية لا معنى اصلا لتسويتها او هدمها او القفز فوقها؟ ما معنى أن تتكامل نظريات ومفاهيم البيولوجيا حول الحمض النووي والخلايا الجذعية ومكونات الخلايا مع مفاهيم الدين المتعلقة بخلق الله للحياة أو مع كلام الفيلسوف عن معنى حياة الانسان او كلام علماء الاجتماع عن تبعات اجتماعية لا يعلمها الا الله؟ أي قصة (وأي **وحدة داخلية** في أي قصة) يمكن ان تحاك عن الاستنساخ بحيث تجمع بين "اسبتصارات" insights علماء البيولوجيا والرهبان وعلماء الاجتماع والفلاسفة؟ وهل من المناسب اصلا الاشارة الى المفاهيم والنظريات البيولوجية كـ "استبصارات"؟ إذا كانت "الاستبصارات" هي جل ما يمكن ان يحلم به الفلاسفة والفنانون وعلماء الانثروبولوجيا، فهل من العدل ان يتم جر علماء الطبيعة الى هذا المستوى من الانجاز؟

زد على ذلك: على مستوى التخصصات نفسها هناك الخلاف طويل الامد حول المناهج بين التخصصات بل في التخصص الواحد نفسه. كما أن هناك شكوكا حول وجود مناهج اصلا. وهناك تعدد في النظريات المتنافسة في الحقل الواحد وفي التخصص الواحد. هب اننا فريق بحث عابر للتخصصات في دراسات المرأة والجندر: فينا من يذهب مذهب السلوكية في علم النفس وفينا من يذهب مذهب فرويد، وفينا من يدرس الظواهر الاجتماعية مستخدما المناهج الكمية وفينا من يستخدم المناهج الكيفية، فينا من يؤمن بالداروينية الاجتماعية، وفينا من يقول بالجوهرانية، وفينا من يؤمن بمقولات الوجودية، فينا البيولوجي الذي يرى ان الفروقات البيولوجية بالغة الاثر، وفينا من يقلل من اهمية هذا، فينا الاقتصادي الذي يرى أن العوامل الاقتصادية متغيرات مستقلة، والانثربولوجي الذي يرى ان العوامل الثقافية هي المتغيرات المستقلة. ما الامل في،

بل ما معنى الحصول على "استبصار" متكامل يأخذ من كل هذه الرؤى التي يقال عنها انها جزئية؟ نتكلم كما لو ان الظواهر المدروسة تشبه احجية الصور المقطعة، حيث نبحث عن "قطع" ذات اشكال والوان مختلفة يأخذ كل منها موقعه، ويساهم في خلق صورة "شاملة" ذات معنى.

اضافة الى كل ما سبق، يكاد هذا الخطاب المستفيض عن التكامل يوحي بان لا دور للتخصصات سوى ان يقوم احد بالتوليف بين مناهجها ومقارباتها واستنتاجاتها. ويوشك هذا أن يغفلنا عن رؤيه حقيقة كبرى: وهي ان للتخصصات مجالاتها البحثية subject matter, area of study الخاصة بها والتي تعكف على دراستها طولا وعرضا وعمقا: مجالات مثل الاجسام والزمان والمكان والحركة بالنسبة للفيزياء، او الاجسام الحية بالنسبة للبيولوجيا، او العدد بالنسبة للرياضيات أو الظواهر النفسية بالنسبة لعلم النفس والظواهر الاجتماعية بالنسبة لعلم الاجتماع وتاريخ البشر بالنسبة للتاريخ والظواهر الاقتصادية بالنسبة للاقتصاد وهكذا. أما الاستفادة من التخصصات مجتمعة في دراسة ظاهرة معينة ذات جوانب متعددة فهذا امر ثانوي، لا تعيش او تموت التخصصات من أجله.

يقودنا مفهوم "المجال البحثي" subject matter, area of study الى مسألة في غاية الاهمية، ألا وهي المنطق الذي يحكم وجود **التخصصات** بمجالاتها البحثية المختلفة، والمنطق الذي يحكم وجود **الدراسات العابرة للتخصصات** بمجالاتها البحثية المختلفة. لنبدأ بالحديث عن الامر الثاني. بوسعك انتقاء اي مشكلة او اي جهة او جانب من الوجود وتقديمه كمجال بحثي عابر للتخصصات تحت اسم خاص به. خذ دراسات المناطق كمثال. ما عدد الدراسات العابرة للتخصصات التي يمكن ان تنهض على هذا الاساس؟ كل قارة، وكل بلد، وحتى كل مدينة يمكن ان تشكل مجالا بحثيا عابرا للتخصصات. دراسات الخليج، الدراسات الامريكية،

الدراسات الروسية، الدراسات الصينة، دراسات الشرق الاوسط، دراسات الشرق الاقصى، المشرق العربي، والمغرب العربي. وما المشكلة في وجود دراسات نيويوركية؟ او باريسية؟ أو دوحية؟ أو دراسات شبة جزيرة عربية اضافة الى دراسات الخليج؟ ما المشكلة في وجود دراسات افروامريكية وعربية ، واسلامية، واسلامية عربية (للمسلمين من العرب) ومسيحية عربية، أو دراسات المرأة، او دراسات المرأة في مرحلة الشيخوخة، او دراسات المرأة الشرق اوسطية في مرحلة الشيخوخة؟ أو دراسات الاعاقات بمختلف انواعها؟ عدد المجالات العابرة غير محدد ولا يمكن أن يتحدد.

والان قارن هذا مع الحال في التخصصات. قد يكون عدد المجالات التخصصية كبيرا، ولكنه كان دوما قابلا للحصر حسب منطق معين مفروض علينا الى درجة كبيرة. يمكننا وبلمح البصر التفكير في (اختراع) حقل دراسات جديدة عابرة للتخصصات : دراسات المثليين من اصحاب الاعاقات السمعية في أمريكا الشمالية. ولكن ليس بوسعنا ان نفكر في مجال بحثي تخصصي جديد مثل علم الاجتماع الكيميائي، او الفيزياء الاجتماعية، أو علم نفس الحيوانات وحيدة الخلية. بالطبع لا شك أن التخصصات (اقصد العلوم المختلفة) في حالة تكاثر ولا يكاد يمضي عقد اوعقدين من الزمن حتى تبرز تخصصات جديدة. ولكن المنطق الذي يحكم تطور التخصصات وانقسامها وتفرعها أو الذي يؤدي إلى نشوء تخصصات جديدة تماما هو منطق طبيعي محكوم بتقسيمات هي الى حد بعيد تقسيمات موجودة فعليا في الطبيعة التي تحاول العلوم القاء بساط فكري عليها من خلال المفاهيم والقوانين الذي نتكهن بوجودها.

هناك عبارة بليغة لافلاطون في محاورة الـ Phaedrus، حيث يتكلم عن المفاهيم (ونحن نضيف: التخصصات) التي تقوم بتقطيع الطبيعة من المفاصل، أي في تمصلاتها الحقيقية الموجودة فيها carving

nature at the joints (Plato 1925, 265e). التفريق بين الظواهر الفيزيائية والبيولوجية ليس تفريقا مصطنعا. ولا التفريق بين الظواهر النفسية والاجتماعية، أوعلم السياسية وعلم التاريخ، أو الرياضيات وغيرها من العلوم. بالمقارنة، هل ثمة منطق يحكم "التقطيع" الذي تقوم به الدراسات العابرة للتخصصات؟ ما المنطق في تقطيع يعطينا "دراسات الخليج" وآخر يعطينا "دراسات شبه الجزيرة العربية"؟ ليس هناك من منطق سوى رغبات الباحثين وقراراتهم الشخصية. تتحدد المجالات البحثية العابرة من خلال اختيار الباحثين أو المجتمع أو الدولة أو المؤسسة بناء على اعتبارات اقتصادية او ايديولوجية أو اهتمامات شخصية. هذا لا يقلل من اهميتها بتاتا، ولكنه في نفس الوقت لا يحول دون القول ان التخصصات تحظى بشرعية من نوع مختلف تماما.

من المثير للاهتمام اننا نجد صعوبة في تسمية مجالات البحث العابرة للتخصصات باستخدام كلمة "علم" أو logy-. نسميها دراسات كذا، وليس علم كذا. لا يسعنا استخدام تسمية Gulfology كبديل لـ Gulf Studies. نفس الشيء ينطق على Womenlogy كبديل لمصطلح دراسات نسوية ، وAfrican-Americanlogy كبديل لـ دراسات افروامريكية. نعم، هناك مصطلحات مثل Eygptology, Kremlinlogy, Tibetology Berberlogy, Islamology ولكن هذا لا يعنى ان هناك علما اسمه (مثلا) "علم مصر". ولا يمكن ان تعني Kremlinlogy اكثر من "دراسات نظام الحكم في روسيا".

نجد انفسنا هنا بصدد مسألة بحاجة الى بحث مطول، وهي مسألة ما اذا كان بوسع **الدراسات العابرة** للتخصصات ان تفرز نظريات أصيلة، أو ما إذا كان يمكن لتربة **المجالات العابرة** أن تغذي علوما بالمعنى المعتاد للكلمة. قديما نفى ارسطو امكانية وجود علم في الامور العينية والعرضية. بهذا المعنى تنتفي امكانية قيام علم اسمه "علم أحمد" أو Ahmadology. "علم الانسان" ربما، لكن ليس "علم احمد"، لأن هذا الاخير وجود عيني مفرد particular. نفس الامر ينطبق على دراسات الخليج. فـ "الخليج العربي" اسم علم مثله مثل "أحمد". كما لا يمكن للوجود العرضي contingent being ان يكون موضوعا للعلم (Aristotle 1941,1058b1-6) . لذلك

(وفي سياق فلسفة ارسطو ايضا) تنتفي امكانية قيام علم اسمه "علم المرأة" أو "علم الرجل"، مقابل علم الإنسان، ذلك ان الذكورة والانوثة (وحتى العرق واللون) هي أمور عرضية متعلقة بالمادة Matter وليس بالجوهرEssence أو الصورة Form (Aristotle 1941, 1058b25). واذا صدق حدسي بأن **مجالات** البحث العابر للتخصصات تتسم إما بالعينية (مثل دراسات المناطق بمختلف افرعها) أو بالعرضية (مثل الدراسات المثلية) أو بالاثنتين معا (التصحر على كوكب الارض) فلن تفزر هذه الدراسات علوما خاصة بمجالاتها المختارة، وانما يحكم عليها ان تقتات على ما تقدمه التخصصات من نظريات اصيلة.

ليس بوسعنا التوسع في مثل هذه المواضيع الآن. ما اريد ان اخلص اليه هو القول أنه ليس من المنطق في شيء ان نترك بناء العلوم التخصصية من ورائنا للذهاب الى نمط من الدراسات يشار اليها احيانا بمصطلحات مثل postdisciplinarity, antidisciplinarity التي لا يمكن ان ترتقى الى درجة العلم، ولا نجد لها افضل من هذه التسمية المتكررة – "دراسات". لن نجد هنا سوى فوضى الحواس دون ذاكرة الجسد ان صح التعبير. كل ما يمكننا قوله انه من المفيد بل من الضروري ان تتعاون التخصصات في بحث القضايا المعقدة متعددة الجوانب، وان يكون المختصون مستعدون لمناقشة بعضهم بعضها والتعلم من بعضهم البعض. وفي هذا المسعى لا يوجد حاجة لمرشد أعلى نسميه "الباحث عابر التخصصات" the interdisciplinarian، لكي يؤلف او يركب ويدمج الرؤى والاستبصارات. فالمختص ليس idiot savant، على الاقل ليس في افضل احواله. لذا يمكننا الاكتفاء بالدراسات متعددة التخصصات. اما القول بالعبور، وبالمعنى الذي يعطي انطباعا باختراقات وتكاملات من نوع عميق، او شامل فهو مضلل. أما القول بتجاوز التخصصات او فقدانها للاستقلالية فهو اكثر من مضلل. ليس لأنه ليس هناك من يقوم بدور التخصصات، بل لأنه يستحيل ان يقوم بدورها شيء آخر.

مراجع عربية

عزمي بشارة" تحديات امام العلوم الاجتماعية والانسانيات في السياق العربي" **المحاضرة الافتتاحية** للسنة الدراسية 2017-2018.

مراجع اجنبية

Aristotle (1941). *The Basic Works of Aristotle*, edited by Richard McKeon. New York: the Modern Library.

Benson, T.C. (1982). "Five Arguments against Interdisciplinarity Studies". *Issues in Integrative Studies*,1, 38-48.

Jacobs, Jerry A. (2013). *In Defense of Disciplines*. Chicago: Chicago University Press

Klein, Julie Thompson (1996). *Crossing Boundaries: Disciplinarities and Intedisciplinarities.* Charlottesville: University of Virginia Press.

Liu, Alan. (2008). *Local Transcendence: Essays on Postmodern Historicism and the Database*. Chicago: University of Chicago Press.

Newell, William H. (1983). "The Case for Interdisciplinary Studies: *Response to Professor Benson's* Five Arguments." *Issues in Integrative Studies* 2 : 1-19.

Nissani, Moti (1995). "Fruits, Salads, and Smoothies: a Working Definition of Interdisciplinarity". *The Journal of Educational Thought*, 29, 121-128.

Nissani, Moti (1997). "10 Cheers for Interdisciplinarity". *The Social Science Journal* 34(2) 201-216.

Plato. *Plato in Twelve Volumes*, Vol. 9, translated by Harold N. Fowler. Cambridge, MA, Harvard University Press; London, William Heinemann Ltd. 1925.

Repko, Allen et al. (2012). *An Introduction to Interdisciplinary Studies*. Los Angeles: Sage Publications.

Repko, Allen (2010). *Interdisciplinary Research: Process and Theory*. Los Angeles: Sage Publications

Wasserstrom, Jeffrey N. (2006) "Expanding on the I-Word". *Chronicle of Higher Education*, v.52, n.20, p.B5.

View publication stats